الفصل الثاني

أخلاقيات النبي ﷺ مع أعدائه قبل الحرب

- المبحث الأول: رغبة النبي ﷺ في السلم وكراهيته للحرب.
- المبحث الثاني: صدق النبي ﷺ مع العدو والوفاء له.
- المبحث الثالث: رحمة النبي ﷺ بالعدو وذويه.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

رغبة النبي ﷺ في السلم وكراهيته للحرب

- المطلب الأول: حرص النبي ﷺ على تأليف القلوب.
- المطلب الثاني: حرص النبي ﷺ على المصالحة.
- المطلب الثالث: كراهية النبي ﷺ للحرب.

المطلب الأول

حرص النبي ﷺ على تأليف القلوب

والحديث عن هذا من خلال النقاط التالية: الأمر بالتيسير والتبشير، إنزال الناس منازلهم، إعطاء الأمان فرصة للمداولة، الرفق بسفير العدو، الاعتراف بالدول الكافرة ذات السيادة، قبول هدايا الأعداء.

أولاً: أمره ﷺ بالتيسير والتبشير

فقد كان ﷺ يأمر بالتيسير والتبشير والرفق في كل شؤونه، ويوصي أصحابه بذلك، وذلك لأن هذا يطيب النفوس، ويرقّق القلوب، ويبعث فيها الأمل، ويورثها المحبة والقبول.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا**»[1].

---

(١) مسلم (١٧٣٢) كتاب الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

obeikandl.com

قال النووي: «إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على «يسِّروا» لصدق ذلك على من يسَّر مرةً أو مرات، وعسَّر في معظم الحالات، فإذا قال: «**ولا تعسِّروا**» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب... وفي الحديث: الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف، وأنواع الوعيد محضةً من غير ضمها إلى التبشير، وفيه تأليف من قرب إسلامه، وترك التشديد عليهم»[(١)].

فهذا الحديث وإن بدا أن لا خصوصية له بالحرب، مما نحن بصدده، إلا أنه قاعدة عامة، ووصية خالدة: في السلم والحرب، في التعامل مع المسلمين ومع الكافرين، في الميل للصلح أو للحرب، في فداء الأسرى أو قتلهم، فإذا حكّمنا هذه الوصية في الحروب مع الأعداء، كان تأليف القلوب، وتحبيب الإسلام إلى النفوس، وإرضاء الله ورسوله.

ثانيًا: إنزاله ﷺ الناس منازلهم

فقد كان ﷺ يعرف لكبار القوم قدرهم، وينزلهم منازلهم، وهو القائل: «**أنزلوا الناس منازلهم**»[(٢)]؛ لأن هذا الشريف له أثر في قومه، وإكرامه إكرام القوم جميعًا، وإذلاله إذلالهم. وهذا المعنى حققه ﷺ مع الأعداء عامّة، ومع قريش في عام الفتح خاصة، فعندما أسلم أبو سفيان، قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[(٣)].

---

(١) شرح مسلم (١١/ ٢٨٤ - ٢٨٥).

(٢) أبو داود (٤٨٤٢) كتاب الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٠٣)، البداية والنهاية (٤/ ٣٣٦)، الرحيق المختوم ص (٤٠٧)، فقه السيرة (البوطي) ص (٢٧٨).

فانظر إلى هذه المنزلة التي منحها النبي ﷺ أبا سفيان في قومه، إذ أعلن أن بيته مكان أمان وجوار لكل من دخله، وهذه وجاهة ومنزلة تناسب مقام أبي سفيان في قريش، فهو القائد والزعيم، وإليه مآل الأمور، لم يُنْقصه ﷺ من منزلته شيئًا بعد إسلامه؛ ليبين له وللناس أن الإسلام يرفع من قدر الإنسان، لا يخفضه. أما لو كانت تلك النفوس اللئيمة المنتقمة، لجعلت من أبي سفيان عبرةً وتنكيلاً، كيف لا وهو قائد المشركين في كل الغزوات، والمحارب الأول للدعوة سابقًا، ولكن ما هي إلا النفس الكريمة، التي تعرف قدر الآخرين، وتنزلهم منازلهم، الآمرة بذلك.

قال المناوي تعليقًا على الحديث السابق: «أي: احفظوا حرمة كل أحد على قدره، وعاملوه بما يلائم حاله، في دين وعلم وشرف، فلا تسوّوا بين الخادم والمخدوم، والرئيس والمرؤوس، فإنه يورث عداوة وحقدًا في النفوس»[(١)].

ولقد تحقق هذا المعنى تمامًا بإنزال أبي سفيان منزلته في قومه، وذلك من حيث: الأثر الطيب في نفس أبي سفيان، وإخماد نار الحرب، إذ دخل ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! وكان الفتح المبارك، وحقن الدماء. بخلاف ما لو أهانه ﷺ، وثارت حميته ودخل مكة يؤجج الناس ويحمسهم، وبالتالي لا بد من وقوع مئات القتلى. ولذا كان ﷺ يؤكد على هذا المعنى، فينزل الناس منازلهم، ويوصي بإكرام وجيه القوم، فقد قال ﷺ: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[(٢)]. قال في فيض القدير: « فأكرموه: برفع مجلسه، وإجزال عطيته، ونحو ذلك بما يليق به؛ لأن الله

---

(١) ر: فيض القدير (٣/ ٥٧).

(٢) ابن ماجه (٣٧١٢) كتاب الأدب، باب: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. قال في الزوائد: في إسناده سعيد بن مسلمة، وهو ضعيف.

تعالى عوّده ذلك ابتلاءً منه له، فمن استعمل معه غيره فقد استهان به وجفاه، وأفسد عليه دينه، فإن ذلك يورّث في قلبه الغلّ والحقد والبغضاء والعداوة، وذلك يجر إلى سفك الدماء، وفي إكرامه: اتقاء شره، وإبقاء دينه، فإنه تعزّز بدنياه وتكبر، وتاه وعظم في نفسه، فإذا حقّرته فقد أهلكته، من حيث الدين والدنيا »[١]. وهذا المعنى حققه ﷺ ثانية بعد غزوة حنين (٨هـ)[٢]، عندما أعطى كبار القوم من الغنيمة الكثير، فقد روى رافع بن خديج قال: «**أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل...**»[٣]. ومن هؤلاء من كان مسلمًا كأبي سفيان، ومن لم يسلم بعد كصفوان بن أمية، إنما أعطاهم تأليفًا لقلوبهم وقلوب أقوامهم، ومن باب إنزال الناس منازلهم.

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً[٤] سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا، فوالله إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر. فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها[٥].

فلقد كان لهذا العطاء والخلق الكريم أثره في نفوس هؤلاء، فأسلم الكثير منهم، وطهرت نفوسهم، وزالت الشحناء والبغضاء من قلوبهم، قال صفوان:

---

(١) ر: فيض القدير (١/ ٢٤١).

(٢) وهذا الكلام ينبغي أن يكون مكانه في الفصل الرابع (أخلاقه ﷺ مع العدو بعد الحرب) ولكن أوردته هنا إتمامًا للفكرة.

(٣) مسلم (١٠٦٠) كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.

(٤) هو صفوان بن أمية ذاته.

(٥) مسلم (٢٣١٢) كتاب الفضائل، باب: ما سئل النبي ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه.

«والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ»[(١)].

ثالثًا: إعطاؤه ﷺ الأمان فرصة للمداولة

إن إعطاء العدو فرصة من الزمن، يعينه على إعمال الفكر، واختيار الأصلح، بعيدًا عن القسر والإكراه، وقبل ذلك وبعده، فإن لذلك أثره الطيب في النفوس، ولهذا كان ﷺ يعطي الأعداء الأمان إذا طلبوه، أو طلبه أحدٌ لهم، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع عدة أشخاص، نذكر اثنين منها:

١- صفوان بن أمية [(٢)]: فقد عمَدَ إلى البحر فرارًا من مواجهة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فجاء ابن عمه عمير بن وهب بن خلف إلى رسول الله ﷺ يطلب له الأمان قائلاً: إنه هرب فارًّا نحو البحر، وقد خشيت أن يهلك نفسه، فأرسلني إليه بأمانٍ يا رسول الله، فإنك قد أمنت الأحمر والأسود. فقال رسول الله ﷺ: **«أدرك ابن عمك، فهو آمن»** ثم لحق بابن عمه، وأخبره بأمان رسول الله ﷺ، فلم يطمئن حتى رجع ثانية، وجاءه بعمامة رسول الله ﷺ التي كان معتجرًا بها حينما دخل مكة، فجاء - صفوان - إلى رسول الله ﷺ فقال: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني، قال ﷺ: **«صدق»** قال: فاجعلني بالخيار فيه شهرين، قال: **«أنت بالخيار أربعة أشهر»**[(٣)].

---

(١) مسلم (٢٣١٤) الكتاب والباب السابقان ذاتهما.

(٢) هو: صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي، أبو وهب، استعار منه ﷺ سلاحًا عندما خرج إلى حنين - وهو لا يزال على الشرك - وهو أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية، ووصله لهم الإسلام من عشر بطون. أعطاه ﷺ من الغنائم بعد حنين كثيرًا، فقال: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي فأسلم. مات بمكة سنة مقتل عثمان رضي الله عنه. ر: الإصابة (٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠).

(٣) ر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٥ - ٣٥٦)، مرويات الزهري (٢/ ٧٣٢).

فكانت من ثمرة هذا الأمان أن أسلم خلال أيام عندما رجع ﷺ من حنين، وأعطاه ما أعطاه من المال. وقد صنع الأمان في نفسه ما صنع.

٢- عكرمة بن أبي جهل[١]: وقد فعل مثل صاحبه، فطلبت له زوجته أم حكيم بنت الحارث، الأمان من رسول الله ﷺ فأعطاها، فطلبته فأدركته بتهامة، وقيل: استرجعته من اليمن، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وأسلم، وحسن إسلامه[٢].

فانظر ماذا فعلت فرصة الأمان في نفوس الأعداء، وذلك عندما وقفوا على صدق أخلاقه ﷺ، ولمسوا منه معنى الحرص والشفقة عليهم، فأقبلت نفوسهم طائعة مستجيبة لداعي الخير، ورحيم الأمة ﷺ.

ولهذا فقد عنيت شريعتنا الغرّاء بهذا الأمر - إعطاء الأمان -؛ لما له من أثر بالغ في نفوس المستأمنين، فمهما كانت العداوة شديدة بين المسلمين وأعدائهم، فإذا دخلوا بلادنا وطلبوا الأمان، كان واجبًا علينا الاستجابة لطلبهم، وذلك حتى يسمعوا القرآن، ويتأثروا بأخلاق الإسلام، وإذا ما أرادوا الرجوع إلى بلادهم وجب إيصالهم إلى مأمنهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦][٣].

أي: إن سألك أحد المشركين الجوار، وهو الدخول في أمانك وذمامك فأجره وأمّنه.

---

(١) هو: أحد صنايد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم عام الفتح، وشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر رضي الله عنه. استشهد في وقعة اليرموك، وقيل: بأجنادين. مرّ يومًا بالمدينة فقيل له: هذا ابن عدو الله، فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقام خطيبًا وقال: «لا تؤذوا مسلمًا بشتم كافر». ر: فيض القدير (٦/ ٣٨٤)، الأعلام (٤/ ٢٤٤).

(٢) ر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٦)، مرويات الزهري (٢/ ٧٣٣ - ٧٣٤).

(٣) ر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١١٤).

رابعًا: رفقه ﷺ بسفير العدو

إن سفير القوم ممثلهم، وإكرامه إكرامهم، ويصدق عليه حديث النبي ﷺ: «**كريم قوم**» ولهذا المعنى كان ﷺ يكرم السفراء ويرفق بهم، وإن عدة مواقف للنبي ﷺ تؤكد ذلك.

١- حواره مع عروة بن مسعود[(١)]: وذلك إبّان صلح الحديبية، حين أرسلته قريش، فقد كان يظن هذا بمحاورته للنبي ﷺ أنه من نظرائه، جاهلاً قدر النبي ﷺ، فكان يأخذ بلحيته ﷺ بين الحين والآخر، كما كانت العرب تفعله ملاطفةً، وغالب ما يكون ذلك بين النظير والنظير، فكان المغيرة بن شعبة يضرب يده بنعل السيف قائلاً: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ[(٢)]. وفي رواية: فإنه لا ينبغي لمشركٍ أن يمسّه[(٣)]، لكن النبي ﷺ لا يثرّب عليه، بل كان يحادثه استمالةً وتأليفًا، والمغيرة يمنعه إجلالاً له ﷺ وتعظيمًا.

٢- صلحه مع سهيل بن عمرو[(٤)]: الذي جاء ممثلاً لقريش في وضع بنود

---

(١) هو: عروة بن مسعود بن معتب، الثقفي، كان أحد الأكابر في قومه، وقيل: إنه المراد بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أسلم حين انصراف النبي ﷺ من الطائف (٨هـ) وقال عنه: «عرض علي الأنبياء... ورأيت عيسى، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود». رجع بعد إسلامه يدعو قومه إلى الإسلام، وبينما كان يؤذن للفجر رماه رجل من ثقيف بسهم فقتله. ر: الإصابة (٤/ ٤٠٦).

(٢) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

(٣) ر: فتح الباري (٥/ ٤٠١) وعزاها ابن حجر لابن إسحاق.

(٤) هو: سهيل بن عمرو بن عبد شمس، خطيب قريش، تولى أمر الصلح بالحديبية (٦هـ) سكن مكة ثم المدينة، قال عمر للنبي ﷺ: دعني أنزع ثنيتي سهيل، فلا يقوم علينا خطيبًا، =

الصلح، فقد سايره ﷺ، ونزل عند رغبته في بعض الأمور؛ تيسيرًا للأمر، وتحقيقًا للصلح. فعندما قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم - أي اكتبها - فأبى سهيل إلا كتابة باسمك اللهم، فوافقه ﷺ. وعندما قال له: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فأبى سهيل، وقال: والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فوافقه على ذلك ﷺ، ثم طلب سهيل كتابة ما يُلزم المسلمين بردّ من جاءهم من المشركين مسلمًا، ولا تلتزم قريش بردّ مَنْ جاءها مرتدًا، فوافقه ﷺ، رغم امتعاض الصحابة من ذلك. وكل ذلك تحقيقًا للصلح والمهادنة، وتصديقًا لعهده ﷺ الذي قطعه على نفسه حينما توجه إلى مكة قائلاً: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خِطةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم**»[1]. وعلى هذا النحو من الرفق واللين والتكريم لرسول قريش تم الصلح.

قارن بين أخلاقه ﷺ هذه، وتعامله مع سفير العدو، وبين معاملة كسرى الغليظة لسفير المسلمين، عندما بعث النبي ﷺ كتابًا إليه عن طريق عظيم البحرين (المنذر بن ساوى) مع عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فمزّق الكتاب[2].

= وكان أعلَمَ - مشقوق الشفة العليا - فقال ﷺ: «دعها، فلعلها أن تسرك يومًا» فلما مات النبي ﷺ قام سهيل فقال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت». مات بالطاعون سنة (١٨هـ)، وقيل: قتل باليرموك. ر: الإصابة (٣/ ١٧٧).

(١) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط. ر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٥).

(٢) البخاري (٤٤٢٤) كتاب المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

ولقد فهم هذا المعنى أصحابه من بعده، فهذا الصديق رضي الله عنه يوصي قواده بذلك، ففي وصيته الخالدة ليزيد بن أبي سفيان قائلاً: «... وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم» [(١)].

فهذه كانت أخلاقه ﷺ مع سفير العدو، الرفق واللين، والتيسير والتسامح.

خامسًا: اعترافه ﷺ بالدول الكافرة ذات السيادة

قد يُظنّ لأول وهلة، أن الإسلام لا يعترف بانقسام العالم إلى دول متعددة، ذات سيادة وقانون مختلف، باعتبار أن الإسلام لا يهتم بما بين الدول الأخرى من اختلاف في نظم الحكم والشرائع، فهي بالنسبة للإسلام شيء واحد مخالف لشريعة الله، غير أن الحقيقة الواقعية تؤكد أن الإسلام يقرّ بوجود دول مختلفة في هذا العالم[(٢)].

والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ اعترف بالدول القديمة، على اختلاف أديانها وشرائعها، فأرسل إلى ملوكها وأمرائها كتبًا مع سفرائه، أصحابه رضوان الله عليهم: فقد اعترف بدولة الروم، فأرسل دِحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر، واعترف بدولة الفرس، فأرسل عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى، واعترف بدولة الحبشة، فأرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، واعترف بدولة القبط، فأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، واعترف بالغساسنة، فأرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر، واعترف بمملكة عُمان،

---

(١) أبو بكر الصديق (الصّلاّبي) ص (٣٧٥).

(٢) ر: آثار الحرب ص (١٦٨).

فأرسل عمرو بن العاص السّهمي إلى ملكيْها جيفر وعبّاد ابني الجُلُندي الأزديّين[١]. فكل هذه الرسائل وغيرها تؤكد اعترافه ﷺ بهذه الدول، مع اختلاف دياناتها وقوانينها مع المسلمين.

ويمكن القول: إن شريعة الإسلام تصورت وجودها وتعايشها مع دول أخرى، تخالفها في العقيدة واللغة والهدف، منذ أن شرع الله نظام الجزية في كتابه العزيز[٢].

سادسًا: قبوله ﷺ هدايا الأعداء

فلقد كان من هديه ﷺ الحثّ على التهادي، فكان يقبل الهدية ويثيب عليها[٣]، ويقول: «**تهادوا، إنّ الهدية تذهب وحَرَ[٤] الصدر**» [٥]. ولذلك كان ﷺ يهدي أصحابه، ويقبل هداياهم، بل إنه كان يقبل هدايا الأعداء، ففي غزوة خيبر (٧هـ) أهدته يهودية شاة مصلية[٦]، فقبلها ﷺ، تأليفًا للقلوب، ولكن تلك اليهودية كانت ماكرة، دسّت فيها السمّ، فمات بعض أصحابه، وعفا عنها ﷺ[٧]. وعن علي

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٧)، زاد المعاد (٣/ ٦٩١ - ٦٩٧).

(٢) ر: الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام ص (٤٨١).

(٣) البخاري (٢٥٨٥) كتاب الهبة، باب: المكافأة في الهبة.

(٤) الوحَرَ: الغيظ والحقد والغلّ وبلابل الصدر ووساوسه. ر: لسان العرب (٥/ ٢٨١) مادة: (وحر).

(٥) الترمذي (٢٢١٣) كتاب الولاء، باب: ما جاء في حثّ النبي ﷺ على الهدية.

(٦) اختلف في ذلك: أكان ذاك قبل الصلح أم بعده، قال ابن القيم: « وعلى هذا فهذه المرأة لما سمّت الشاة صارت محاربة ». ر: زاد المعاد (٣/ ٣٥١).

(٧) البخاري (٣١٦٩) كتاب الجزية والموادعة، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يعفى عنهم؟.

رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أن كسرى أهدى له فقبل، وأن الملوك أهدوا إليه فقبل منهم**»[١].

والخلاصة: أن النبي ﷺ قبل هدايا الأعداء؛ لما لها من أثر في تأليف القلوب، ولأنها تنزع الغلّ والحقد والكراهية من النفوس، وهذه معانٍ يرمي إليها الإسلام، ولأن ردّها يجعل في النفس شيئًا، وما كان ليفعل ذلك ﷺ وهو الحريص على هداية الناس وإسلامهم.

المطلب الثاني

حرص النبي ﷺ على المصالحة مع العدو

والحديث عن ذلك يتناول: التعريض بالمهادنة والمصالحة، الجنوح للسّلم دومًا، وذلك في الفقرتين التاليتين:

أولاً: تعريضه ﷺ بالمهادنة والمصالحة

فقد كان ﷺ يلمّح بالصلح ويعرّض بالمهادنة مع العدو، وذلك تحاشيًا للقتال ما أمكن، فلا يصير إليه إلا إذا تعيّن عليه وأراده العدو، فعندها يكون ﷺ أقوى الناس وأثبتهم.

ففي حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه يوم الحديبية، أن النبي ﷺ قال: «**إنّا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة**[٢]**، ويخلّوا بيني وبين الناس**[٣]**، فإن أظهر: فإن شاؤوا أن يدخلوا**

---

(١) الترمذي (١٦٢٤) كتاب السير، باب: ما جاء في قبول هدايا المشركين. وقال عنه: حديث حسن غريب.

(٢) أي: جعلت بيني وبينهم مدة، نترك الحرب فيما بيننا، وهي المهادنة.

(٣) أي: كفار العرب وغيرهم، بأن يتفرغ ﷺ لدعوتهم إلى الإسلام.

فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[١]**، وإن هم أبَوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي**[٢]**، ولينفذنّ الله أمره»**[٣].

فلقد عرّض ﷺ بالمصالحة والمهادنة بقوله: «**فإن شاؤوا ماددتهم مدة**» وأنه مستعد لقبول أي مشروع سلام، تعظّم فيه شعائر الله تعالى، ولا تنتهك حرماته، وهذا ما صرح به ﷺ بقوله: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطةً يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها**»[٤]. وهذا ما أكده عروة بن مسعود لقريش حينما رجع إليهم، ووصفها بخطة رشد، وذلك بقوله: «**إن هذا – أي النبي ﷺ – عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته...**»[٥].

أما لو أصرت قريش على خلاف ذلك، ولم تستجب لداعي الصلح والسلام فقد لَمّح ﷺ بالقوة والثبات والإصرار على أمر الدعوة، فلا مساومة عليها، وذلك بقوله: «**وإن هم أبَوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي...**».

قال ابن المنيّر: «لعله ﷺ نبه بالأدنى على الأعلى، أي: أن لي من القوة بالله والحول به ما يقتضي أن أقاتل عن دينه لو انفردت، فكيف لا أقاتل عن دينه مع

---

(١) أي: استراحوا وكثروا وتقووا، والاستجمام: طلب الراحة. ر: لسان العرب (١٢/ ١٠٦) مادة: (جم).

(٢) السالفة: صفحة العنق، وكنّى بها ﷺ عن القتل؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه. ر: فتح الباري (٥/ ٣٩٩).

(٣) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

(٤) البخاري (٢٧٣١) الحديث السابق نفسه، ر: زاد المعاد (٣/ ٢٨٩).

(٥) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٢).

وجود المسلمين وكثرتهم، ونفاذ بصائرهم في نصر دين الله تعالى»[١].

ثانيًا: جنوحه ﷺ للسّلم دومًا

ما عرض عليه ﷺ الصلح يومًا وردّه، كيف لا وهو المسارع إليه، المعرّض به، وقد أمره ربه سبحانه بذلك بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. والشواهد على ذلك كثيرة، أبرزها ما وقع له أثناء غزوة تبوك (٩هـ)، وذلك عندما خافته الروم، فولّت هاربة، فجاءته نصارى إيلة وجرباء وأذرح[٢]، يعرضون عليه الصلح، فقبل ﷺ.

قال ابن إسحاق: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يُحنّة بن رؤبة، صاحب إيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، وأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فهو عندهم، وكتب ليُحنّة بن رؤبة وأهل إيلة: بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أَمَنةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله، ليُحنّة بن رؤبة وأهل إيلة، سفنهم وسياراتهم في البرّ والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيّب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحلّ أن يمنعوا ماءً يردونه، ولا طريقًا من برٍّ أو بحرٍ.

وكتب لأهل جرباء وأذرح نحوه، وأعطى أهل أيلة بردة مع كتابه أمانًا لهم[٣].

ونحو هذا وقع لأكيدر دومة الجندل، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من

---

(١) ر: فتح الباري (٥/ ٣٩٩).

(٢) إيلة: تقع على خليج العقبة، وجرباء وأذرح: في جنوب الأردن من بلاد الشام.

(٣) ر: البداية والنهاية (٥/ ٢٢)، زاد المعاد (٣/ ٥٣٧).

كندة، وكان ملكًا نصرانيًا، دعاه ﷺ إلى الإسلام فأبى، فصالحه على الجزية، وكتب له كتاباً[١].

فهكذا كانت مواقفه ﷺ مع أهل الكتاب، يقبل منهم الصلح مباشرة، ويأخذ منهم الجزية، ويكتب لهم كتاب أمان. وإلا فهو القادر - بعد هروب الروم خوفًا منه - أن يفعل بهم ما يشاء من القتل والسّبي ونحوه، ولكنها أخلاق النبوة، وعدالة الإسلام، والجنوح للسّلم دومًا، كما أمر الباري سبحانه وتعالى.

المطلب الثالث

كراهية النبي ﷺ للحرب ومباعدته عن القتال

والحديث عنه يتناول: النهي عن تمنّي القتال، تجنب المواجهة مع العدو رحمةً لا جبنًا، الرغبة في التفاوض مع العدو.

أولاً: نهيه ﷺ عن تمنّي القتال

إن تشريع القتال في الإسلام يشبه وصفة الدواء، فلا يصار إليها إلا عند المرض والحاجة، وهكذا بالنسبة إلى القتال، لا يصار إليه إلا حينما يتعين وسيلة للدعوة، فليس هوايةً ولا وسيلة لتحقيق رغبات النفس، ولهذا ما كان ﷺ يحبه، بل كان ينهى عن أن يتمناه أصحابه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تمنَّوا لقاء العدو، فإذا لقيتموه فاصبروا**»[٢]. وفي رواية: «**وسلوا الله تعالى العافية**»[٣].

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٦)، زاد المعاد (٣/ ٥٣٨).

(٢) البخاري (٣٠٢٦) كتاب الجهاد والسير، باب: لا تمنوا لقاء العدو.

(٣) أبو داود (٢٦٣١) كتاب الجهاد، باب: في كراهية تمني لقاء العدو.

قال ابن حجر: « قال ابن بطال[١]: حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن، وقد قال الصدّيق: لأن أعافى فأشكر، أحبّ إلي من أن أُبتلى فأصبر. وقال غيره: إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتّكال على النفوس، والوثوق بالقوة، وقلة الاهتمام بالعدو»[٢]. كما يستفاد من الحديث: المنع من طلب المبارزة، وهو رأي الحسن البصري، وكان علي رضي الله عنه يقول: «**لا تدع إلى المبارزة، فإذا دعيت فأجب تنصر، لأن الداعي باغٍ**»[٣]. أما لو طلبها العدو، فإنها تجوز، ودليل ذلك: ما حصل في بداية غزوة بدر (٢هـ)، عندما طلبت قريش المبارزة، فأجابها ﷺ، وندب لها: عمه حمزة، وابن عميه: علي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، رضي الله عنهم[٤].

ثانيًا: تجنبه ﷺ المواجهة مع العدو رحمةً لا جبنًا

فقد كان من منهجه ﷺ في الحروب، تجنب المواجهة والقتال ما أمكن، يطلب الصلح والمفاوضة حينًا، ويحاول إخافة العدو حتى يولي هاربًا، أو يستسلم حينًا آخر، وقد يلجأ ﷺ إلى الحيلة والخدعة[٥] وتخذيل العدو.

---

(١) هو: علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، عالم بالحديث، من أهل قرطبة، له كتاب شرح البخاري لا يزال مخطوطًا، توفي سنة (٤٤٩هـ). ر: الأعلام (٤/ ٢٨٥).

(٢) ر: فتح الباري (٦/ ١٨١).

(٣) ر: المرجع السابق نفسه.

(٤) ر: زاد المعاد (٣/ ١٧٩)، البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٥) سيأتي الكلام عن: (الحرب خدعة) فليست خلقًا مذمومًا، وإنما هي وسيلة عسكرية، غايتها تضليل العدو.

والغاية من ذلك كله المباعدة عن القتال، وصرف المواجهة العسكرية، والوقائع التالية تؤكد هذا المعنى:

١- في غزوة أحد (٣هـ) فقد كان من رأيه ﷺ عدم الخروج لملاقاة العدو، وقال لأصحابه: «**امكثوا واجعلوا الذراري في الآطام**[(١)]، **فإن دخل علينا القوم في الأزقّة قاتلناهم، ورُمُوا من فوق البيوت**». ولكن الشبّان من أصحابه أحرجوه ﷺ للخروج، ولا سيما الذين لم يشهدوا بدرًا، فنزل عند رغبتهم كارهًا[(٢)]، فقد قالوا له: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا، وقرب المسير. وقال بعضهم: يا رسول الله، لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها ! فقال رسول الله ﷺ: بم؟ قال: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفرّ من الزحف ! فقال له رسول الله ﷺ: صدقت، واستشهد يومئذٍ. قال ابن كثير: «وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر»[(٣)].

٢- غزوة حمراء الأسد (٣هـ): فقد لحق النبي ﷺ بأصحابه مشركي قريش، ولكن غايته إدخال الرعب والخوف في قلوبهم، فيولون هاربين، ولا تقع مواجهة. ومما يؤكد ذلك، أن معبد بن أبي معبد الخزاعي جاء النبي ﷺ إبّان خروجه لحمراء

---

(١) **الآطام**: جمع أُطُم: وهو الحصن المبني بالحجارة، وأُطُوم المدينة: حصونها. وقد تطلق على القصور. ر: لسان العرب (١٢/ ١٩) مادة: (أطم).

(٢) ولا سيما أنه ﷺ رأى رؤيا فقال: «إني رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا يُذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثُلمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة» وتأوّل البقر: بنفر من أصحابه يقتلون، وتأوّل الثلمة: برجل يصاب من أهل بيته، وتأوّل الدرع: بالمدينة. ر: البداية والنهاية (٤/ ١٧)، الرحيق المختوم ص (٢٦٦).

(٣) ر: البداية والنهاية (٤/ ١٨).

الأسد، وأعلن إسلامه، وقيل: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحًا لرسول الله ﷺ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف، فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق بأبي سفيان ويخذله[١]. وأمر أصحابه بإشعال النيران في الليل لإرهاب العدو، فكان المسلمون يشعلون كل ليلة خمسمائة نار ! فتحيل الليل إلى نهار[٢]، وقد تحقق المقصود، فقد خافت قريش، وولت هاربة إلى مكة، وهذا كله مباعدةً عن القتال. وإنما خرج ﷺ بأصحابه المشاركين في غزوة أحد وحدهم - وقد منع المنافقين من الخروج معه - ليؤكد قوة المسلمين، ويظهر ثباتهم على المبدأ والدعوة، ويعيد اعتبارهم وعزّتهم أمام قريش، وأمام المتربصين بهم من المنافقين ويهود المدينة، والله أعلم.

٣- غزوة الخندق (٥هـ): فقد كان لقول النبي ﷺ لنعيم بن مسعود[٣] رضي الله عنه: «**خذّل عنا ما استطعت**» بالغ الأثر[٤]، في صرف الأعداء، وانتهاء الغزوة

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٢)، الرحيق المختوم ص (٢٩٧ - ٢٩٨).

(٢) ر: في ظلال السيرة النبوية (غزوة أحد) ص (١٥١).

(٣) هو: نعيم بن مسعود بن عامر، الأشجعي، أسلم ليالي غزوة الخندق، روى عن النبي ﷺ بعض الأحاديث، قتل في وقعة الجمل، أول خلافة علي رضي الله عنه. ر: الإصابة (٦/ ٣٦٣).

(٤) ذهب إلى بني قريظة فقال لهم: قد عرفتم وُدِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال: إن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم، لا تقدرون على التحول منه إلى غيره. أما قريش وغطفان فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، فقالوا: أشرت بالرأي، ثم ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم: عرفتم ودي لكم، وقد بلغني خبر فأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال: إن بني قريظة ندموا على نقضهم العهد مع =

دون قتال، وصرف الله تعالى الأحزاب، وصدق فيهم قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

والملاحظ أن النبي ﷺ لم يوجه نعيم بن مسعود إلى هذا الأمر، إلا ليقع الخلاف بين الأحزاب، وبالتالي فلا يكون قتال، وهذا الذي حصل فعلاً. قال ابن المنيّر: «معنى الحرب خدعة: أي الحرب الجيدة لصاحبها، الكاملة في مقصودها، إنما هي المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر»(١).

٣- غزوة الفتح (٨هـ): فقد كان رسول الله ﷺ يحرص على ألا تعلم قريش بالمسير إليها؛ لئلا تتجهز وتستعد للقتال، وهو أمر لا يرغبه، فتراه يدعو ربه قائلاً: **«اللهم خُذْ على أسماعهم وأبصارهم، فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة»**(٢).

ومما يؤكد هذا المعنى - تجنب المواجهة - أنه عندما وصل ﷺ ممرّ الظهران، أمر أصحابه بإيقاد النيران العظيمة، فأوقدت عشرة آلاف نار، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا يتحسسون الأخبار، فلما رأوها قال

= محمد، وأرسلوا إليه: فهل يرضيك أن نأتيك برجال من أشراف قريش وغطفان فنضرب أعناقهم، ونكون معك على الباقين؟ فأجابهم: نعم. فإذا طلبوا منكم ذلك فلا تعطوهم. فعندما أرسلت قريش لبني قريظة بأن ينهضوا لمناجزة المسلمين أبوا ذلك وقالوا: لا نفعل إلا برهائن - كما أشار نعيم - فقالت قريش وغطفان: صدق نعيم فأبوا أن يسلموهم. ووقع الخلاف. ر: البداية والنهاية (٤/ ١٣٤ - ١٣٥).

(١) ر: فتح الباري (٦/ ١٨٣).

(٢) ر: البداية والنهاية (٤/ ٣٢٧).

أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قطّ ولا عسكرًا![١]، وعندما كتب الله لهم الإسلام قال ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه: «**احبس أبا سفيان بمضيق الوادي، حتى تمرّ به جنود الله فيراها**»[٢]. فوقف أبو سفيان يستعرض الجيش، وكلما مرت سرية من سرايا الجيش وتحمل رايةً يقول للعباس: من هذه؟ فيقول: سليم، فيقول ما لي ولسليم، وهكذا، حتى مرّ به رسول الله ﷺ في كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ قال هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا، فقال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن، ثم قال له العباس: النجاة إلى قومك، فأسرع أبو سفيان، حتى دخل مكة، قبل أن يصلها رسول الله ﷺ، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[٣]، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[٤].

فانظر كيف تجنب ﷺ المواجهة، وصرف عن قريش والمسلمين القتال:

- فقد بدأ بدعاء ربه سبحانه، بألا تعلم قريش بالمسير، فلا تتجهز للقتال.
- ثم أمر بإيقاد النيران العظيمة، حتى تظهر كثرة الجيش وقوته.
- ثم أمر العباس رضي الله عنه بإيقاف أبي سفيان لاستعراض الجيش،

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٠١)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٣٢٩).

(٢) البخاري (٤٢٨٠) كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

(٣) ر: فقرة: إنزال الناس منازلهم، السابقة.

(٤) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٠٣)، البداية والنهاية (٤/ ٣٣٥ - ٣٣٦)، فقه السيرة (البوطي) ص(٢٧٧ - ٢٧٨).

فيرى عظمته وقوته، وبالتالي فإنه سيوازن قوة قريش بقوة هذا الجيش العظيم، فيذهب إلى قريش، وهو الرجل العظيم المطاع فيها، خبير الحروب والغزوات، فينقل هذه الصورة العظيمة قائلاً: لقد جاءكم محمد بما لا طاقة لكم به!.

- ثم فتح لهم أبواب الأمان: دخول دار أبي سفيان، إغلاق كل منهم بابه، دخول المسجد الحرام.

فقد تحقق ذلك كله بدقة، كما رسمه النبي ﷺ، وكان الأمان والسلام والإسلام.

أما لو كانت غايته ﷺ الحرب والمواجهة - كما يتوهم البعض - لاستطاع بهذا الجيش العظيم أن يحقق نصرًا عسكريًا، ويكسب سمعة مدوّية، ويدخل مكة بعد حصد مئات الأرواح، ولكن ما هذا الذي كان يريده ﷺ، قال العباس: حين نزل رسول الله ممرّ الظهران قلت: وا صباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوةً قبل أن يأتوا فيستأمنونه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر[1].

ثالثًا: رغبته ﷺ في التفاوض مع العدو

كان من منهج النبي ﷺ دفع القتال والشرِّ بالمصالحة ما أمكن، ولا تكون الحاجة إلى القتال إلا كحاجة المريض إلى الكيِّ، وهو آخر الدواء. فإذا انسدت كل طرق الصلح، استعان بالله تعالى وقاتل.

ففي غزوة الأحزاب[2] (٥هـ) حاول النبي ﷺ صرف طائفة من الأحزاب دون قتال، أملاً في خلخلة صفوف الأحزاب، وبالتالي فلا تقع المواجهة ولا

---

(١) ر: البداية والنهاية (٤/ ٣٣٤).

(٢) وتسمى غزوة الخندق، اعتبارًا بحفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه. أما الأحزاب: فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان وبني أسد، وتبعهم يهود بني قريظة. ر: فتح الباري (٧/ ٤٥٣ - ٤٥٤).

القتال، لكن أشار عليه بعض أصحابه بخلاف ذلك فأخذ برأيهم. فقد روى ابن إسحاق: أن النبي ﷺ بعث إلى عيينة بن حصن[١]، والحارث بن عوف المرّي، وهما قائدا غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عن المسلمين، فجرى بينه وبينهم الصلح، حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك، بعث إلى السَّعديْن (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) رضي الله عنهما، فذكر ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمرًا تحبه فتصنعه، أم شيئًا أمرك الله به، لا بد من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما**». فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم يطمعون أن يأكلوا ثمرةً واحدة، إلا قرىً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا الله وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال النبي ﷺ: «**أنت وذاك**» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب[٢].

فالملاحظ أن النبي ﷺ فاوض زعماء غطفان على بعض ثمار المدينة، والغاية هي درء القتال بأي صورة كانت، وإن كان ثمة تفسيرات وتوجيهات لفعله ﷺ ثم استشارة أصحابه:

---

(١) أسلم فيما بعد، ثم ارتدّ، ثم عاد إلى الإسلام، وكان من جفاة القوم، من المؤلفة قلوبهم. ر: الإصابة (٤/ ٦٣٨).

(٢) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٣)، البداية والنهاية (٤/ ١٢٦ - ١٢٧)، زاد المعاد (٣/ ٣٧٣)، الرحيق المختوم ص (٣٢٣ - ٣٢٤).

- فمن قال: أراد أن يطمئن ﷺ إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة، والاعتماد على نصر الله وتوفيقه، فما كان ﷺ يحبّ أن يسوق أصحابه إلى حرب أو مغامرة، لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها، وهذه من أبرز أساليبه التربوية ﷺ[١].

- ومنهم من قال: كان يرمي ﷺ إلى إيجاد شرخٍ في بناء الأحزاب وزلزلته، وتمزيق هذه الوحدة وتصديعها، فيكون الضعف والهلع، وعدم القدرة على البقاء طويلاً في مواجهة المسلمين[٢].

ويبدو أن كل هذه التفسيرات والتحليلات وجيهة ومعتبرة، والحقيقة أنها تصبُّ في هدف واحد: ألا وهو تعطيل أمر القتال والمواجهة، وهذا من رحمته ﷺ بالناس، مسلمهم وكافرهم، بأصحابه: ألا تسفك دماؤهم، وبأعدائه: ألا يموتوا على الكفر، وهو المبعوث رحمة للعاملين، وذلك لأن كثيرًا من هؤلاء الأحزاب قد أسلموا وحسن إسلامهم، كما تؤكده الوقائع التي جرت بعد تاريخ هذه الغزوة.

---

(١) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢٣٣).

(٢) ر: في ظلال السيرة النبوية (غزوة الأحزاب) ص (١٥٤)، الرحيق المختوم ص (٣٢٣).

المبحث الثاني

صدق النبي ﷺ مع العدو والوفاء له

- المطلب الأول: صدق النبي ﷺ مع العدو.
- المطلب الثاني: وفاء النبي ﷺ للعدو.

المطلب الأول

صدق النبي ﷺ مع العدو

والحديث عنه يتناول: التكتّم لا يخرجه ﷺ عن الصدق، وتوجيه قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**».

أولاً: التكتّم لا يخرجه ﷺ عن الصدق

لقد حرّم الإسلام الكذب بكل صوره، إلا أن النبي ﷺ رخص فيه في ثلاث: الحرب، والإصلاح، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[1].

قال النووي: « قال القاضي: لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو؟ فقالت طائفة: هو على إطلاقه، وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة... وقال الطبري: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا، المراد به التورية،

(١) مسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكذب وبيان المباح منه.

واستعمال المعاريض، لا صريح الكذب، مثل: أن يعد زوجته أن يحسن إليها ويكسوها كذا، وينوي إن قدر الله ذلك»[١].

فالخلاصة: أن الكذب وإن كان مباحًا في مواضع، رخّص فيها النبي ﷺ، إلا أنه لم يقع منه ﷺ في حياته، لا مع عدو ولا صديق. ولو كان ذلك في أحلك الظروف، حيث تسعه الرخصة التي شرع. ويؤيّد ذلك أنه في مسيره ﷺ وأصحابه إلى بدر، أخذ يستكشف أخبار قريش، هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، فلقيا شيخًا من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش، وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادةً في التكتّم - فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال له رسول الله ﷺ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**» قال: أوذاك بذاك؟ قال: نعم. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني منهم، اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جيش المسلمين ! وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جيش مكة، ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**» ثم انصرف عنه، وبقي الشيخ يتفوه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟[٢].

فتلاحظ أن النبي ﷺ استعمل التورية، فكل مخلوق من ماء، فصدق الرجل، وحافظ على أسرار الجيش، بآن واحد.

ثانيًا: توجيه قوله ﷺ «الحرب خدعة»

قد يبدو لأوّل وهلة أن الخداع صفة مذمومة، بعيدة عن الصدق والصفاء في التعامل، فكيف يجيزه النبي ﷺ، بل كيف يحث عليه بقوله: «**الحرب**

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ٣٩٥).

(٢) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠١)، الرحيق المختوم ص (٢٢٩).

خدعة»؟[١] وأصل الخداع: إظهار أمر وإضمار خلافه[٢]. فهل يتوافق هذا مع أخلاق النبي ﷺ وخاصة الصدق منها؟ فالجواب: أن الخدعة في الحرب لا علاقة لها بالصدق ولا بالكذب، إنما هي: الرأي والمكيدة والحذر. وعلى هذا يمكن توجيه قوله ﷺ على النحو التالي:

- احذروا من مكر العدو وخدعه، وكأنه يقول ﷺ: انتبهوا من العدو وخذوا حذركم لئلا يخدعكم.

- أو هي استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة وما حصل في غزوة الخندق (٥هـ) من تفريق الأحزاب، وردّ كيد الأعداء بسبب خدعة نعيم بن مسعود أكبر دليل على ذلك. ولذلك وقع الاقتصار عليه مشعرًا أهميتها في الحرب، فقال ﷺ: «**الحرب خدعة**»، نظير قوله: «**الحج عرفة**» مشعرًا أهمية هذا الركن في الحج. قال ابن المنيّر: «معنى: الحرب خدعة: أي: الحرب الجيدة لصاحبها، الكاملة في مقصودها، إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر»[٣].

فالمخادعة: هي تضليل العدو وإيهامه، وهي جزء من العلم العسكري الحديث، وتسمى: فن التمويه، والاستتار عن الحقيقة، والقيام بأعمال تضليلية؛ لصرف العدو عن الاتجاهات والأمكنة والأعمال الأساسية[٤]،

---

(١) البخاري (٣٠٣٠) كتاب الجهاد والسير، باب: الحرب خدعة.

(٢) ر: لسان العرب (٨/ ٦٣ - ٦٤) مادة: (خدع)، وفيها خمس لغات كما أشار ابن حجر: خَدْعة، خُدْعة: بفتح الخاء وضمها، مع تسكين الدال، وهما منطوق النبي ﷺ، ويقال: خُدَعة وخَدَعة وخِدْعة. ر: فتح الباري (٦/ ١٨٣).

(٣) ر: فتح الباري (٦/ ١٨٣).

(٤) ر: الجهاد والقتال (٢/ ١٢٩٢).

فليست خلقًا ذميمًا كما يُتَصَوَّر. نعم تكون ذميمة إذا كان فيها تنكر للأخلاق والقيم.

قال النووي: «واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحلّ»[١].

- ومن صور استخدامه ﷺ لهذا الفنّ في الحرب: أنه عندما خرج لغزوة بني لحيان (٥هـ) خرج ﷺ بأصحابه وأظهر أنه يريد الشام، ثم اتجه إلى بلادهم، بين أمج وعُسفان، أي: جنوب المدينة[٢].

- ومن صور استخدامها: ما فعله خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم مؤتة (٨هـ) عندما جعل الميمنة ميسرة، والمقدمة مؤخرة ونحوها، وأرسل خيلاً تثير الغبار من خلف الجبل، موهمًا العدو أن مددًا جاءهم من المدينة، وهذا ما أدخل الرعب في نفوس الروم، فولوا هاربين.

فالخلاصة: أن الخدعة فنّ قتالي، لا يتعارض مع أخلاق النبوة، بل هي من أخلاق النبوة، إذ غايتها تجنب المواجهة مع العدو، وحقن الدماء.

المطلب الثاني

وفاءُ النبي ﷺ للعهد مع أعدائه

والكلام عنه يتناول: الالتزام بالعهد ما لم ينقضه العدو، النهي عن الغدر.

أولاً: التزامه ﷺ بالعهد والميثاق

كان ﷺ أوفى الناس للعهد مع ربه سبحانه، ومع البشر، مسلمهم وكافرهم، كيف لا يكون ذلك من كان خلقه القرآن الذي جاء فيه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا

---

(١) شرح مسلم (١٢/ ٢٨٩).

(٢) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٧٦).

عَٰهَدتُّمۡ ﴾ [النحل:٩١]، و ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، وغيرها من الآيات الداعية إلى الوفاء بالعهد والميثاق.

ولا أدلّ على ذلك من حادثتين اثنتين وقعتا عقب صلح الحديبية (٦هـ)، الذي كان أحد بنوده: التزام المسلمين بردّ من جاءهم مسلمًا إلى قريش، ويقابله: عدم التزام قريش بردّ من جاءهم من المسلمين مرتدًا[١].

- فما إن انتهوا من كتابة الصلح، إذ جاءهم أبو جندل [٢] يرسف [٣] في قيود، وهو ابن سهيل بن عمرو، سفير قريش ونائبها في وضع شروط الصلح مع المسلمين، فقال: يا محمد، أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فطلب منه ﷺ أن يجيزه له فأبى[٤]. قال ابن إسحاق: قال ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنّا لا نغدر، والله جاعل لك فرجًا ومخرجًا**»[٥].

---

(١) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٧)، زاد المعاد (٣/ ٢٩٤).

(٢) هو: عبد الله بن سهيل بن عمرو (سفير قريش في صلح الحديبية)، شهد بدرًا وذلك أنه جاء مع المشركين، فانحاز إلى المسلمين، ثم أسر وعذّب كثيرًا ليرجع عن دينه، ولما كان فتح مكة، كان هو الذي استأمن لأبيه. استشهد باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. ر: الإصابة (٧/ ٥٨).

(٣) **الرسفان**: هو مشي المقيّد، رويدًا رويدًا، وذلك عندما يتحامل برجله مع القيد. ر: لسان العرب (٩/ ١١٩)، المصباح المنير ص (١١٩) مادة: (رسف).

(٤) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد.

(٥) ر: فتح الباري (٥/ ٤٠٧).

- وعندما رجع ﷺ من الحديبية إلى المدينة، جاءه أبو بصير[١] من قريش مسلمًا، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلته لنا، فدفعه إلى الرجلين[٢]، وفي رواية لابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بصير، إن هؤلاء القوم صالحونا على ما علمت، وإنّا لا نغدر، فالحق بقومك، فقال: أتردني إلى المشركين يفتنوني عن ديني ويعذبونني؟ قال: اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا**»[٣].

فانظر إلى عظم هذه العبارة، التي كررها ﷺ مع الاثنين: «**وإنا لا نغدر**» فهي التعبير الصادق عن وفائه ﷺ مع عدوّه، رغم أن قلبه ﷺ كان يعتصر ألمًا على تسليم صاحبيه للعدو؛ ليسومهما سوء العذاب، إلا أنه الوفاء والالتزام بالعهد، الذي يدين به ﷺ، ثم أوكل أمرهما لربه سبحانه وتعالى قائلاً لكل منهما: «**اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا**» ومع هذا كله، فهو القوي ﷺ، والقادر على عدم تسليم صاحبيه للعدو، لكن خلق الوفاء - كما بينا - أملى عليه ذلك

---

(١) واسمه: عتبة بن أسيد، الثقفي، كنيته أبو بصير، كان وأبو جندل ممن انضموا إلى جماعة تهدد تجارة قريش، حتى طلبت قريش من النبي ﷺ أن يؤويهم إليه - متنازلة عن شرط الحديبية - ليستريحوا منهم، ففعل، لكن ورد كتابه ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير، وكان هذا الأخير يموت، فمات وكتاب النبي ﷺ في يده، فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه. ر: الإصابة (٤/ ٣٥٩).

(٢) البخاري (٢٧٣١) الحديث السابق، وتمامه: فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يافلان جيّدًا، فاستلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيّد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفرّ الآخر... ثم أتى سيف البحر وانفلت أبو جندل ولحق به.

(٣) ر: فتح الباري (٥/ ٤١١)، ولقد صدقت نبوءته ﷺ، فقد جعل الله له ولأبي جندل فرجًا ومخرجًا.

ﷺ. لا كما تفعل الدول القوية مع الضعيفة، فإنها لا تلتزم معها بعهد ولا ميثاق، إنما منطق القوة وحده، هو الذي يحدد كل شيء.

ولم يقف وفاؤه ﷺ للعدو عند هذا الحدّ، فقد كان يأمر أصحابه بالوفاء معه، ويحذرهم من الخُلف، تعبيرًا عن قيم الإسلام العالية، ويؤكد هذا المعنى حديثان اثنان، الأول: لأبي رافع، والثاني: لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

- أما حديث رافع، فقد قال: بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ أُلقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أخيس بالعهد – أي: لا أنقضه – ولا أحبس البُرُد**[1]، **ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع**» قال: فذهبت، ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت، وكان قبطيًا[2].

فرغم حرصه الشديد ﷺ على دعوة الإسلام، ودخول الناس فيها، لم يغفل الجانب المهمّ، ألا وهو الوفاء بالعهد.

- وأما حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أنني خرجت أنا وأبي حُسيل[3]، قال: فأخذنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون

---

(١) قال الخطابي: « وقوله: (لا أحبس البُرُد) فقد يشبه أن يكون المعنى في ذلك أن الرسالة تقتضي جوابًا، والجواب لا يصل إلى المرسل إلا على لسان الرسول بعد انصرافه، فصار كأنه عقد له العهد مدة مجيئه ورجوعه، والله أعلم ». ر: معالم السنن ٣/ ١٨٩).

(٢) أبو داود (٢٧٥٨) كتاب الجهاد، باب: في الإمام يستجنّ به في العهود.

(٣) حُسَيْل: بالتصغير ويقال: بالتكبير، هو ابن جابر بن ربيعة، يماني، والد حذيفة، قتله المسلمون في أحد خطأ، فقال لهم حذيفة: أبي أبي – تنبيهًا لهم – ولكنهم قتلوه فقال: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فبلغت النبي ﷺ، فزاده خيرًا، ووداه من عنده. ر: الإصابة (٢/ ٦٦).

محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منّا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه، فقال: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»[١]. فقد حرص على أخلاق أصحابه، بأن لا يشوبها زَغَل، ولا يعتريها خلل، من نقض العهود ونحوها، فأمرهم بالوفاء لأعدائهم رغم حاجته الشديدة لمثلهم في هذه المعركة الحاسمة.

قال النووي: «وأما قضية حذيفة وأبيه، فإن الكفار استحلفوهما: لا يقاتلان مع النبي ﷺ في غزاة بدر، فأمرهما النبي ﷺ بالوفاء، وهذا ليس للإيجاب، فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه، ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه نقض العهد، وإن كان لا يلزمهم ذلك»[٢].

وهذا كله إذا التزم المعاهدون بالعهد والميثاق، ولم يخالفوا شرطًا من الشروط، فإن فعلوا لم يبق لهم ذمة، وحلّت دماؤهم وأموالهم. وهذا ما حصل ليهود خيبر عندما صالحهم النبي ﷺ على أن يجليهم، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء[٣] والحلقة[٤]، واشترط في عقد الصلح: ألا يكتموا ولا يغيّبوا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد. فعندما خالفوا الشرط وغُيبوا مِسكًا[٥] فيه مال لحُيَيْ بن

---

(١) مسلم (١٧٨٧) كتاب الجهاد والسير، باب: الوفاء بالعهد.

(٢) ر: شرح مسلم (١٢/ ٣٨٦).

(٣) **الصفراء**: الذهب، **البيضاء**: الفضة.

(٤) **الحلْقة**: السلاح عامةً، وقيل: هي الدروع خاصة. ر: لسان العرب (١٠/ ٦٥) مادة: (حلق).

(٥) **المسك**: الجلد، وجمعه مسوك ومُسُك، وكأنه وعاء يوضع فيه الشيء. ر: لسان العرب (١٠/ ٤٨٦) مادة: (مسك).

أخطب[١]، قتل من نكث العهد وغدر، وهما ابنا أبي الحقيق، وسبى نساءهم وقسم أموالهم[٢].

وكذلك قريش، فقد حفظ لها رسول الله ﷺ عهدها وميثاقها في صلح الحديبية، وما أوردناه من شأن أبي جندل وأبي بصير رضي الله عنهما خير شاهد على ذلك، ولكن عندما نقضوا العهد، وغدروا بحلفاء النبي ﷺ بني خزاعة، نبذ إليهم عهدهم ﷺ، وهبّ لنصرة خزاعة، وكان فتح مكة[٣].

ثانيًا: نهيه ﷺ عن الغدر

فكما كان ﷺ يفي بالعهد مع العدوّ والصديق، ويأمر أصحابه بذلك، كان يحذّر من الغدر ونقض العهد أيما تحذير، سواء أكان الغدر مع العدوّ، أو مع أهل الذمة.

- أما التحذير منه مع العدو، فقد روى بريدة أن النبي ﷺ قال: «**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا...**»[٤]. قال النووي: « وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها،

---

(١) هو: زعيم بني النضير - والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها - كان من الأشداء العتاة، وينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين، قتل مع بني قريظة (٥هـ). ر: الإعلام (٢/ ٢٩٢).

(٢) ر: فقه السيرة (الجميلي) ص (١٤٢ - ١٤٣).

(٣) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٠)، زاد المعاد (٣/ ٣٩٦)، البداية والنهاية (٤/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٤) مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير، باب: تأمير الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، أبو داود (٢٦١٣) كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، واللفظ لمسلم.

وهي: تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان»[١].

- وأما مع أهل الذمة، فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»[٢]، وفي رواية: «**وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا**»[٣].

وكما أن النبي ﷺ حذر من الغدر، فقد أشار إلى سوء عاقبته، بأن اعتبره علامةً من علامات النفاق، فمن يغدر يوشك أن يكون منافقًا، فهو تحذير ما بعده تحذير ! فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «**أربع خلال من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا: مَنْ إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها**»[٤].

ولقد حفظ أصحابه رضوان الله عليهم هذا المعنى، فلم يغدروا في تعاملهم، لا مع الأعداء، ولا مع أهل الذمة، أما هؤلاء فقد أعطوا ذمة الله ورسوله. وأما مع الأعداء، فقد عبروا لهم عن منتهى القيم، وغاية المُثُل، وإن كانوا غير مثرّبين فيما لو غدروا، وهذا ما حصل لخبيب أثناء أسره، فلم يغدر وهو القادر على ذلك، مع تيقنه بالهلاك[٥].

---

(١) ر: شرح مسلم (٢/ ٢٨١).

(٢) البخاري (٣١٦٦) كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم من قتل معاهدًا بغير جرم.

(٣) النسائي (٤٧٥١) كتاب القسامة، باب: تعظيم قتل المعاهد.

(٤) البخاري (٣١٧٨) كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر.

(٥) وذلك عندما وقع في الأسر، واشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل في مكة، وكان قد قتل أباهم الحارث في بدر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبيٍّ لي، فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك منيّ، وفي يده الموسى، =

.....

= فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله... وفي رواية: فأخذ خبيب بيد الغلام فقال: هل أمكن الله منكم؟ فقالت: ما كان هذا ظنّي بك، فرمى لها الموسى وقال: إنما كنت مازحًا. وفي رواية: ما كنت لأغدر. ر: البخاري (٤٠٨٦) كتاب المغازي، باب: غزوة الرجيع...، فتح الباري (٧/ ٤٤٢).

قال ابن حجر: « وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورّع عن قتل أولادهم ». فتح الباري (٧/ ٤٤٤).

يقول الدكتور البوطي: « فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان ! خبيب هذا، وأولئك المشركون الحاقدون، الذين راحوا يصنعون له الموت ظلمًا وعدوانًا، عرب أنبتتهم أرض واحدة، وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة، ولكن خبيبًا اعتنق الإسلام، فأخرجه الإسلام إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالتهم، فحبستهم ضلالاتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل ». ر: فقه السيرة ص (٢٠٠).

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

رحمة النبي ﷺ بالعدو وذويه

- المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بالعدو.
- المطلب الثاني: رحمة النبي ﷺ بذوي العدو.

المطلب الأول

رحمة النبي ﷺ بالعدوّ

وهذا الخلق يتجلى في أنه ﷺ ما كان يأخذ أحدًا من الأعداء بجريرة غيره، وكان يحفظ لهم ما لهم.

أولاً: ما كان ﷺ ليأخذ أحدًا بجريرة غيره

فعندما صالح رسول الله ﷺ يهود خيبر (٥هـ) لما ظهر عليهم، على أن يجلّيهم منها، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة، واشترط في عقد الصلح: ألا يكتموا ولا يغيّبوا شيئًا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد. فخالفوا الشرط، وغيّبوا مِسكًا فيه حلي لحَيَيْ بن أخطب، كان حمله معه إلى خيبر حين أجليت بنو النضير، فعندما كشف الأمر ﷺ، قتل من نكث منهم، وهما ابنا أبي الحقيق، وكان أحدهما زوجًا لصفية بنت حيي، وسبى نساءهم وذراريهم، وقسّم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، ولم يتعدّ ذلك إلى باقي يهود خيبر، بل أبقاهم

ﷺ على مزارعهم يعملون بها بالنصف[١].

قال ابن القيم: «ولم يعمّهم بالقتل كما عم قريظة؛ لاشتراك أولئك في نقض العهد، وأما هؤلاء: فالذين علموا بالمسك وغيّبوه، وشرطوا له إن ظهر، فلا ذمة لهم ولا عهد، فإنه قتلهم بشرطهم على أنفسهم، ولم يتعد ذلك إلى سائر أهل خيبر، فإنه معلوم قطعًا أن جميعهم لم يعلموا بمسك حيي، وأنه مدفون في خربة، فهذا نظير الذمي والمعاهد إذا نقض العهد، ولم يمالئه عليه غيره، فإنّ حكم النقض مختصٌّ به»[٢].

فالخلاصة: أن النبي ﷺ قصر العقوبة على المستحق، ولم يتجاوز بها إلى غيره، وهذه من الرحمة والإنصاف. فقارن بين خلقه هذا ﷺ وبين الهجوم الإسرائيلي على لبنان أجمع (١٩٨٢م) ردًّا على محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي بلندن، من قبل مجهول أطلق عليه النار، فأصابه بجروح، قال (البوليس) البريطاني: إن شابًا تبدو ملامحه شرق أوسطية، قام بهذا العمل![٣] فكان الردّ على مئات وآلاف المدنيين، بشبهة أن القائم بمحاولة الاغتيال (تبدو ملامحه شرق أوسطية !!) فكم الفارق الكبير بين حروبه ﷺ مع الأعداء عمومًا واليهود خاصة، إذ لم يتجاوز عقابه الذين نكثوا ونقضوا العهد، وبين حروب اليهود اليوم، وإحراقهم للأخضر واليابس، وتدميرهم البلاد والمقدسات!.

ثانيًا: حفظه ﷺ لمال أعدائه

في غزوة خيبر (٥هـ) جاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم سيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ١٤٤، ٣٢٦)، فقه السيرة (الجميلي) ص (١٤٢ - ١٤٣)، ر: فقرة: الالتزام بالعهد والميثاق، السابقة.

(٢) ر: زاد المعاد (٣/ ١٤٤).

(٣) ر: وقائع الحرب الإسرائيلية الفلسطينية في لبنان ص (٩).

هذا الذي يزعم أنه نبيّ، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، وأن لا تعبد إلا الله. قال العبد: فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل؟ قال: لك الجنة إن متّ على ذلك، فأسلم. ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال له رسول الله ﷺ: أخرجها من عندك، وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها[1].

فانظر إلى هذا الحفظ لمال العدو وإلى الأمانة، فقد كان يمكنه ﷺ أن يأخذ الأغنام ويقسمها على أصحابه، على أنه إبّان حرب مع هؤلاء اليهود. ولكنه ما أراد أن يفجع صاحب الغنم بهذه الطريقة، كما أراد أن تؤدى الأمانة التي في عنق هذا العبد[2]، فترجع الغنم إلى سيدها، وهذا الذي حصل.

المطلب الثاني

رحمة النبي ﷺ بذوي العدو

والمقصود بذوي العدو: أهلوه، من النساء والأطفال والشيوخ. وهذه الرحمة تجلت بهم في النقطتين التاليتين: الشفقة على أبناء الأعداء، كسر الحصار الاقتصادي عنهم.

أولاً: شفقته ﷺ على أبناء الأعداء

لقد كان ﷺ رحيمًا بالأطفال، سواء أكانوا أبناء مسلمين، أم أبناء كافرين؛ لأنهم على فطرة الإسلام، وليسوا من أهل المؤاخذة والمعاتبة والتكليف، فكان

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٢٧١).

(٢) قتل عندما التقى المسلمون باليهود، وقال عنه ﷺ: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى الخير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصلّ لله سجدةً قطّ!». زاد المعاد (٣/ ٣٢٣).

يشفق عليهم، ويحرص على حياتهم وسلامتهم، ولا أدلّ على ذلك من نهيه ﷺ عن قتلهم في المعارك[١]: فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عندما خرج ﷺ عام الفتح إلى مكة، لقيه في طريقه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[٢]، وعبد الله بن أمية بن المغيرة[٣]، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: «**لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال**» فلما أُخرِج إليهما بذلك [٤]، ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له، فقال: والله ليأذننّ لي، أو لآخذنّ بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا ! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما، ثم أذن لهما فدخلا وأسلما[٥].

فانظر إلى شفقته ﷺ بالأعداء وأبنائهم، فلقد أراد ﷺ أن يعاملهم بالعدل أولاً؛ لما آذوه فيه، ولكن عندما سمع هذه المقولة، وأدرك ﷺ نتائج ذلك على الولد، رقّ لهما وأذن، ورقى معهما ﷺ إلى مرتبة الإحسان والرحمة، وهي أعلى من مرتبة العدل.

---

(١) البخاري (٣٠١٥) كتاب الجهاد والسير، باب: قتل النساء في الحرب، مسلم (٧٤٤) كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، أبو داود (٢٦٦٨) كتاب الجهاد، باب في قتل النساء.

(٢) واسمه: المغيرة، وقيل: اسمه كنيته (أبو سفيان)، كان ممن يشبه رسول الله ﷺ، قال عنه ﷺ: «أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة» شهد حنينًا، وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ. ر: الإصابة (٧/ ١٥١).

(٣) واسمه: حذيفة، وقيل: سهل، صهر النبي ﷺ، وابن عمته عاتكة، وأخو أم سلمة، استشهد بالطائف. ر: الإصابة (٤/ ١٠).

(٤) أي: نقل لهما ما قاله ﷺ من عدم الموافقة على استقبالهما.

(٥) المعجم الكبير للطبراني (٧٢٦٤): (٨/ ٩)، البداية والنهاية (٤/ ٣٣٢ - ٣٣٣).

ثانيًا: كسره ﷺ الحصار الاقتصادي عن العدو

ما كان ﷺ ليقابل السيئة بمثلها، في حياته كلها، وإنما يعفو ويصفح، وهذه صفته ﷺ، الموصوف بها في القرآن والتوراة[1]، فلقد أجمعت قريش على مقاطعة النبي ﷺ وبني عمومته بني هاشم وبني المطلب، المساندين له، على ألا يبايعوهم، ولا يناكحوهم ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق: ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ! وعلقوا هذه الصحيفة في جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا في شعب أبي طالب، واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة، ولا بيعًا إلا بادروا فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجؤوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم، يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وإذا أردوا أن يشتروا سلعة من العير التي ترد مكة من خارجها يزيدون عليهم في

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن في التوراة: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا». البخاري (٤٨٣٨) كتاب التفسير، باب: إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا.

قيمتها، حتى لا يستطيعوا شراءها. وظلوا على هذه الحال أكثر من ثلاث سنين! إلى أن قام أهل المروءة من قريش[١]، ونقضوا الصحيفة[٢].

أما النبي ﷺ فقد كان قادرًا على التضييق على قريش اقتصاديًا، ويعاملهم بالمثل، ولكن عاملهم بالتي هي أحسن، وذلك عندما أسلم ثمامة بن أثال[٣]، سيد بني حنيفة قال لقريش: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحَمْلَ إلى مكة، حتى جهدت قريش[٤]، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم، أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، فكتب إليه ﷺ أن يخلي بينهم وبين الحَمْل[٥].

قارن بين موقفه هذا ﷺ من الشفقة والرحمة على الأعداء، وأطفالهم ونسائهم، وموقف قريش منه في قصة المقاطعة السابقة ! فقد كسر ﷺ هذا الحصار الاقتصادي على قريش، مع القدرة على استمراره، والتضييق عليهم أكثر، ولكن ما هي إلا الرحمة بأسر الأعداء.

---

(١) هم: المطعم بن عدي، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وهشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية. ر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٤)، الرحيق المختوم ص (١٣٤).

(٣) هو: ثمامة بن أثال بن النعمان، الحنفيّ، أبو أمامة اليمامي، أسلم بعد أن أطلق أسره، وثبت على الإسلام حين ارتد أهل اليمامة، ولحق بالعلاء الحضرمي وقاتل معه المرتدين في البحرين. ر: الإصابة (١/ ٥٢٥).

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. ر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٧٥)، سورة المؤمنون.

(٥) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣٩)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٢٣٦ - ٢٣٧).

ونحو هذا فعله ﷺ في غزوة الطائف (٨هـ) عندما حاصرهم نحو أربعين يومًا، واستعصت حصونهم على المسلمين، فأمر ﷺ بقطع أعناب ثقيف - وهو نوع من الحصار الاقتصادي والتضيّيق عليهم؛ لإلجائهم إلى الاستسلام - فوقع الناس يقطعون، فسألوه ﷺ أن يدعها لله وللرحم ! فاستجاب لهم ﷺ وقال: «**فإني أدعها لله وللرحم**»[1].

والخلاصة من هذا الفصل: أن أخلاقيات الحرب التي تعامل بها النبي ﷺ مع أعدائه قبل وقوعه، تجلت في النقاط التالية:

١- الرغبة في السلم وكراهية الحرب:

- أما رغبته ﷺ في السلم فقد كان يحرص على تأليف القلوب، ويأمر بالتيسير والتبشير، وينزل الناس منازلهم، ويعطي الأمان للعدو، ويرفق بسفير العدو، ويعترف بالدول الكافرة ذات السيادة، ويقبل هدايا الأعداء.

كما كان ﷺ يحرص على مصالحة العدو، وذلك بالتعريض على المهادنة والمصالحة، ويجنح للسلم دومًا.

- وأما كراهيته ﷺ للحرب: فقد تجلت بالنهي عن تمني القتال، وتجنب مواجهة العدو، والرغبة في التفاوض معه.

٢- الصدق والوفاء مع العدو:

- أما الصدق: فقد كان التكتم لا يخرجه ﷺ عن الصدق مع عدوه، وثمة توجيه لقوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»، يناسب هذا المعنى.

- وأما الوفاء: فقد كان ﷺ يلتزم بالعهد والميثاق مع أعدائه، وينهى عن الغدر.

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).

٣- الرحمة بالعدو وذويه:

- أما رحمته بالعدو: فما كان ﷺ يأخذ أحدًا بجريرة غيره، ويحفظ مال عدوه.
- وأما الرحمة بذويه: فقد تجلت بشفقته على أبناء العدو، وفي كسر الحصار الاقتصادي عنه.

obeikandl.com